حول مقال للأستاذ الطنطاوى

الموسيقى والأغانى الحديثة

للأديب سهيل إدريس

... وأخيراً ... عاد الأستاذ الطنطاوى إلى روض الأدب ، بعد أن انقطع عن ارتياده حيناً من الزمن طويلاً ، حسبنا معه أنه هجره إلى غير عودة ، وذهب بنا الظن « أن الحرفة قد طغت عليه » فصرفته عن الأدب ... أما وقد رجع ، فنرجو أن يواصل المسير ، وأن يتبع الركب ، فلا ريب أنه قد تخلّف عنه ، ولعله لا يفوّته بَعْدُ ! ...

أقول هذا بعد أن قرأت مقال أستاذنا الطنطاوى[1] (الذى حبّب إلينا هذا البلاء الذى نعتز به والذى يدعونه الأدب فبتنا من طلابه ...) عن الموسيقى القديمة والموسيقى الحديثة ، وعمّا تبعثه الأولى فى نفسه من سحر وفتنة ، والثانية من اشمئزاز وبغضاء لها ولرجالها . ثم يقول « فلئن كان العلم عالمياً لا جنس له ولا وطن ، فالفن لعمر الفن ما كان عالمياً ولن يكون . حاولوا أن تطربوا الإفرنج بغنائكم ؛ إنكم لن تطربوهم ولا تطربون أنتم لغنائهم ، ولكن منا من يستشعر قوتهم وضعفنا ، فيخادع نفسه رياء وتقليداً ... » ويتابع الأستاذ مخاطباً الموسيقيين فى بلادنا « ألم تدركوا أن أذواق الناس لا تنشرح إلا للشرق الأصيل .. ما لنا وللجندول وأهل الجندول ، ما لنا ولأنغام الإفرنج التى لا طعم لها فى حلوقنا ؟ »

أما أن يدعى الأستاذ أن العلم وحده عالمى ، وليس الفن كذلك فهذا بِدْعٌ من القول ، بل الحقيقة أن الفن أكثر عالمية من العلم لأنه أقرب إلى نفوس الجميع ، وأدنى إلى التذوق والفهم ، وأبلغ تأثيراً فى الإحساس ، من العلم . وللقطعة الفنية الرائعة جمال ورونق فى كل عين ، وأثر إعجاب فى كل نفس وإن فى روائع الفن الغربى ، لقطعاً قد يكون إعجاب الشرق بها متعدّياً إعجاب الغربى ، سواء كان ذلك فى الموسيقى أو الرسم أو النحت أو غير ذلك من الفنون ؛ وكذلك القول فى الفن الشرقى بالنسبة إلى الغربيين وأعنى نفسى من التمثيل لذلك . فإن هذا الأمر من البداهة بحيث لا يفتقر إلى إيعاء ، بَلْهَ تشريح وتمثيل ! وإنما نعجب بفن الغربيين ، ويعجبون هم ببعض فننا لأن الفن عالمى ، هذا ما لا شك فيه .

ثم كيف يزعم الأستاذ الطنطاوى أننا لا نطرب لغناء الإفرنج ، وأننا « لن » نطربهم بغنائنا ؟ هل نجد اليوم شاباً فى جميع بلدان الشرق الأوسط لا يحفظ من الأغانى الغربية هذه الأغانى : "I' attenderai toujours, ton retour" و "Kiss my again" و "Balalaika" ، ومن الذى لا يهوى سماع السمفونيات والتانجوات وغيرها ؟ ومن منا لا يطرب اليوم للموسيقى الغربية ؟ من منا لا يحب بتهوفن وباخ ؟ وهل للقطع الموسيقية التى يحفظها الشرقيون من الغرب عد أو حصر ؟ ليست القضية قضية موسيقى غربية أو شرقية ، وإنما قضية موسيقى تؤثر فى النفس وتلمس أوتار القلوب ؛ وفى الشرق والغرب من هذه الموسيقى الشىء الكثير ! أما أنا لن نطرب الإفرنج بغنائنا ، فليس ذلك عائداً إلى أن غناءنا — ولا سيما الحديث منه — ليس بالغناء الجميل ، وإنما لتقصير فى وسائل بث هذا الغناء ونشره والدعاية له فى أوروبا ، كما يفعل الغربيون بفنونهم . ولكن الأمر الذى يظلّ موضع النظر ، هو الأغانى « المحلية » البحت ، التى لا يستسيغها عادة إلا أقوام وعشائر معينة لا يمثلون أمة بكاملها أو شعباً بكامله . والواقع يدل اليوم على أن هذه الأغانى ليس لها من الشيوع مثل ما للأغانى غير المحلية . وقليلون هم الذين يؤثرون الأولى على الأخرى . وهذا راجع — فى اعتقادنا — إلى أن الأغانى المحلية تتصف بالرتابة والترديد الباعث على الملل ، وإلى أن لها « جوها » الخاص ، وأن ليس لها نفس الحلاوة والجمال فى جو غيره . وقد يكون من الصحيح أن الأغانى المحلية ستندثر يوماً ما بداعى التطور .

---

(١) العدد ٦١٦ .

وظاهر من مقال الأستاذ الطنطاوى أنه يؤثر هذا اللون من الغناء على غيره . فهى إذن هواية خاصة لا تبرر له أن يُعرِّى ألوان الغناء الأخرى من القيمة أو من الجمال . وما دام الأستاذ قد ذكر الجندول فى معرض الإنكار أو الكراهية ، فلا بأس هنا من أن نناجله القول ؛ فليس من ريب فى أن فن الأستاذ عبد الوهاب قد سجل تحولا جديداً فى الموسيقى العربية الحديثة يوم غنى الجندول من تلحينه ، ولا اذكر أن أحداً من رجال الفن أو الأدب أو السياسة أو حتى الفلسفة ... وقف من هذه الأغنية الموقف الذى يقفه الأستاذ الطنطاوى اليوم ! ولو أنه استشهد بغيرها من أغانى المطرب المعروف لكان الخطب أيسر ! ذلك أن هذه الأغنية أروع ما أنشد عبد الوهاب ، ولن تتماسك أمامه أية أغنية من أغانيه أو أغانى غيره فى معرض المقارنة . ذلك أنه بلغ غاية التوفيق فى تلحينها : فى اقتباس بعض مادتها من موسيقى الإفرنج وإضفاء الروح الشرقية الخالصة على ألفاظها ومعانيها . ولو أنه اجترأ بأحد هذين العنصرين فحسب ، لعرّيت الجندول من قسط كبير من روعتها .

وقصارى ما أود قوله فى هذا الصدد — ولو أنى أعتمد فقط على تذوق للموسيقى دون أن أكون من رجالها — أن تلقيح الألحان العربية بالموسيقى الأوروبية يرفع من شأن موسيقانا الحديثة إلى حد بعيد . فحسبنا من تلك الأدوار القديمة التى بليت ، وكفانا ذلك الترديد الرتيب والتمديد الممل للكلمات بل للأحرف ، وقد شبعنا كلَّ الشبع من أدوار صالح عبد الحى وعزيز عثمان وعبد الله الحولى وأضرابهم ! ...

ويظهر أن الموسيقيين المصريين قد ادركوا فى المدة الأخيرة أن التقيُّد بالقديم من الألحان مؤخر النهضة الفنية ، وصارف الجيل الجديد عن القديم ، فإذا هم يعمدون إلى ألحان يستحدثونها أو يقتبسونها من الألحام الأوروبية ، فيسيرون فى هذا المضمار شوطاً بعيداً . ولا سبيل اليوم لأحد أن ينكر أن الهواة وغير الهواة من المستمعين يؤثرون ألحان عبد الوهاب على غيره من الموسيقيين القدماء . ونحن فى الحق نعتمد — فى نهضتنا الموسيقية الحاضرة — على عبد الوهاب والسنباطى والقصبجى ومن بعدهم على فريد غصن ، وفريد الأطرش ، وعبد العزيز محمود ، وغيرهم كثير .

وإن الدعوة التى يدعو إليها الأستاذ الطنطاوى لدعوة مضرة بالموسيقى والغناء الحديث إن هى اتبعت ، ونحالها لن تتبع . هذا وإن الغناء الحديث قد ارتقى — فى اعتقادنا — ارتقاء كبيراً بالنسبة للغناء القديم ، إذ أنه خلا من الترديد والتمطيط ، فليس اليوم من مغن يسلخ خمس دقائق فى أداء « آه ... » تتبعه الجوقة فينقلب الغناء إلى جو من النعيب ! كما أن الغناء الحديث أصبح أرشق أداء وأرق لفظاً وأحيا روحاً من الغناء القديم . وإنى أرى فيما اتهم به الأستاذ الطنطاوى المطربين المحدثين — جميعاً ! ... — شيئاً من التعسف . وإليه على كل حال تحيتى الصادقة والسلام .

« بيروت » سهيل إدريس

صديقى القارئ

الكتب الآتية

ضرورية لثقافة فكرك ولسانك

وحى الرسالة : للأستاذ أحمد حسن الزيات ٤٠

آلام فرتر : ٤٠

رفائيل : ٤٠

اطلبها من إدارة « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة